

فأذعنوا للأمر على كره منهم ولم يقولوا شيئاً، أو هم خافوك أنت ولم يخافوني أنا! فقد أصبحت شيئاً لا يُخاف، وإنما أنا هامة اليوم أو غد كما يقول حمقى الناس من حولنا، وجذوة اليوم أو غد كما ينبغي أن نقول نحن في لغتنا، ومهما يكن من شيء فإنهم خافوك يا ابنتي؛ لأن أمرهم إليك غداً أو بعد غد، ولم يخافوني أنا لأنني متصل بالماضي الذي ليس إلى رجوعه من سبيل..»

وهمت فاتنة أن ترد على أبيها، ولكنه مضى في حديثه مترقفاً فقال: «ويظهر يا ابنتي أن الشيخوخة تدنينا من العقل أو تدنينا من الجنون أو تدنينا منهما جميعاً، ولست أدري أحزّم ما يضطرب في نفسي من الخواطر أم حمق؟ ولكني ملقيه إليك على علاته، فخذيه مني كما هو، وافعلي به بعد ذلك ما تريدين؛ فقد وصلت إلى السن التي لا أستطيع أو لا أريد أن أبرم فيها أمراً، فيم يدبر ملوك الجن لنا هذا الكيد؟ وفيم ينصبون لنا هذه الحرب؟ وفيم تلقين كيدهم بمثله وتهيئين لحربهم حرباً مثلها؟ في شيء لا يعني رعاياهم ولا رعيّتنا من قريب أو بعيد. هم يحبونك ويتنافسون فيك، وأنت تزدريهم وتترفعين عنهم وتمتنعين عليهم، وماذا يعني رعايانا البائسين مما نجد من الحب والبغض، وما نحس من العشق والهيام! إنهم لا ينعمون حين ننعّم، ولا يبتئسون حين نبتئس؛ وإنما تجري حظوظهم من النعيم والبؤس على قوانين لا صلة بينها وبين ما نستمتع به من سعادة، أو نرزع تحتها من شقاء، ومن القسوة يا ابنتي أن ننعّم وهم بائسون، وأن نقوى وهم ضعفاء، ونثري وهم فقراء، نستمد من بؤسهم نعيمًا، ومن ضعفهم قوة، ومن فقرهم ثراء، فكيف نضحى بهم في سبيل أهوائنا وشهواتنا وعواطف قلوبنا، ونزعنا نفوسنا! لو رفقت بهم يا ابنتي لجنبتهم هذه الحرب التي يدبرها عشاقك، وهذه الحرب التي تدبرينها أنت لهؤلاء العشاق، ولاخترت لنفسك من بين هؤلاء الملوك زوجًا تنعمين بعشرته وينعم بعشرتك، ومن يدري لعل رعيّتكما أن تصيب أطرافًا من هذا النعيم، ولكنك يا ابنتي لا تجنّبينهم حربًا، وإنما تدفعينهم إليها دفعًا كما تدفع الوقود إلى النار المضطربة التي لا تشبع مهما يقدم لها من الحطب، وأمرك في ذلك كأمر عشاقك جميعًا، كلكم يتبع هواه الجامح، ويركب شهوته المندفعة، ويضحى في سبيل نفسه بكل شيء وبكل حي. ليس هذا حقًا، وليس هذا عدلاً، وقد كنت أعجب أنفاً بما أوتيت من العلم وما بلغت من الحكمة يا ابنتي، ولكني أجد الآن حزناً لاذعاً يؤذي شيخوختي المتهالكة؛ لأن ما أوتيت من العلم وما بلغت من الحكمة لم يهيئ لك وسيلة تسعدين بها غيرك كما هيأ لك هذه الوسائل التي تُرضين بها هواك، وتحققين بها مآربك، وتظهرين بها على عدوك، وقد يكون كلامي هذا